جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

Naif Arab University For Security Sciences

التصوير الفينومينولوجي لمعالجة مشكلة الجريمة والانحراف في الدول العربية

د. عبدالمجيد عمران

٢٠٠١م

التصوير الفينومينولوجي لمعالجة مشكلة الجريمة والانحراف في الدول العربية

د. عبدالمجيد عمران

التصور الفينومينولوجي لمعالجة مشكلة الجريمة والانحراف في الدول العربية

مقدمـــة

على الرغم من الإمكانيات المادية المتطورة التي تحارب الخطورة الإجرامية وتحاول القضاء على الانحراف والطرق التربوية المختلفة التي تعمل جاهدة لترقية الإنسان إلى ماهو أصلح في المجتمع، وكذلك استخدام المناهج العلمية الأكاديمية في تطوير مراكز البحث وجميع المؤسسات التي تهتم بالبحث العملي عامة من أجل الوصول إلى نتائج إيجابية تقضي أو تقلص من الجريمة التي تفشت وتوسعت في مجتمعنا العربي الإسلامي. فإنه من المستحيل أن نحاول دراسة الجريمة والانحراف في الدول العربية دون أن نأخذ بعين الاعتبار التغيرات الجذرية والتنبؤات المستقبلية التي يقوم بها البحث العلمي لمحاربتها في مجتمعنا.

إذن في هذه الورقة سأحاول قدر الإمكان أن أتطرق إلى الخطورة الإجرامية والانحراف من زاوية فلسفية محددة والتي أرى بأنها مكملة لعلم الإجرام (Criminology) بخاصة وعلم النفس (Psychology) عامـة.

١ ـ ما هو المنهج الفينومينولوجي ؟[1]

يهتم هذا المقال المتواضع بالمنهج الفينومينولوجي (Phenomenology)

---

(١) ـ. جميل صليبا. المعجم الفسلفي. بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩ ص. ٣٥.

أو الظاهرتي والذي اعتقد بأنه لم يستعمل كثيراً عند الباحثين العرب لدراسة مختلف الظواهر وخاصة ظاهرة الجريمة والانحراف بالرغم من أهميته عند الأوروبيين وقبل البدء بالعناصر الأساسية لهذا المقال يجدر بنا أن نطرح عدة أسئلة أهمها :

أ ـ لماذا ؟ وكيف نستخدم المنهج الفينومينولوجي في معالجة مشكلة الجريمة ؟

ب ـ ماهو الهدف من استخدامنا لهذا التصور في معالجته لظاهرة الجريمة والانحراف ؟

ج ـ وهل نتنبأ بظهور مناهج فلسفية جديدة في ظل فكرة العولمة لمحاربة الجريمة والانحراف في بداية القرن الحادي والعشرين ؟

وقبل الإجابة على هذه الأسئلة يتطلب منا الأمر أن نعرف معنى المصطلح الفينومينولوجيا التي نعني بها علم الظواهر ونسميها أيضا في الفلسفة المعاصرة بالظاهرتية بالرغم من أن هناك عدة تعاريف مختلفة سنقتصر على التعريف الفلسفي العربي للدكتور جميل صليبا في معجمه الفسلفي والذي يرى بأن «علم الظواهر هو الدراسة الوصفية لمجموع الظواهر كما هي عليه في الزمان والمكان، وهو مختلف عن دراسة أسباب هذه الظواهر وقوانينها المجردة الثابتة، أو عن البحث في الحقائق المتعالية المقابلة لها، أو عن النقد المعياري لمشروعيتها» وأول من استعمل هذا المصطلح هو الفيلسوف الألماني هيجل (Hegel, 1770-1881) الذي يعني به علم الظواهر في مستواها المتعالي حيث كان يقصد بذلك علم الشعور أما إدموند هوسرل (Edmund Husserl) الفيلسوف الالماني والمؤسس الحقيقي للفسلفة الفينومينولوجيا فهي محاولة لتأسيس العلوم الطبيعية والإنسانية على أسس جديدة مطلقة غير متحيزة لمذهب معين في طبيعة العالم وهي تقوم على مبدأ المشي للأشياء في ذاتها، أي وصف الظواهر كما تبدو

ومباشرة للشعور مع الحرص على عدم وضع أي فرض. وبهذا التعريف أصبحت الفينومينولوجيا محل انتقادات من قبل الفلاسفة الوجوديين بخاصة، مما دفع بهوسرل أن يوضح ويطور مفهوم هذا المصطلح أو المنهج الظاهرتي وهو منهج يهتم بالوصف ويؤكد على وصف الظواهر البادية للشعور دون الاعتماد على نزعة مذهبية معينة. ولقد طبق معظم الوجوديين هذا المنهج في أبحاثهم منهم جان بول سارتر (Jean Jaul Sarter, 1905-1979) الفيلسوف الفرنسي الذي استعمله في دراسته لنظرية الانفعال إذ يرى بأن الانفعالات ليست وقائع موضوعية خارجية وإنما هي ظواهر تظهر من خلال الشعور وذلك باعتبارها ما هيات يكسبها الفرد عن طريق سلوك معين. ويؤكد في كتابه «نظرية الانفعال دراسة في الإنفعال الفينومينولوجي» قائلاً: «. والمهم هنا فقط أن نبين أن الفعل لكونه وعياً عفويا غير مفكر فيه، يكون نوعا من الطبقة الوجودية في العالم، وأنه ليس من الضروري أن يعي المرء ذاته فاعلاً ليفعل ـ بل العكس ـ وبكلمة إن السلوك غير المفكر فيه ليس سلوكا لا واعيا، بل هو سلوك واع لنفسه بصورة غير معلومة وكيفية وعيه لذاته بصورة معلومة هو أن يتجاوز نفسه وأن يدرك في العالم كصفة للأشياء، هكذا نستطيع أن نفهم جميع لزوميات العالم الذي يحيط بنا وتوتراته أيضا، وهكذا نرسم خريطة لهذا العالم المحيط بنا، خريطة تتغير بتغير أفعالنا وحاجاتنا»[1]

---

(١) جان بول سارتر نظرية الانفعال: دراسة في الانفعال الفينومينولوجي. ترجمة هاشم الحسيني. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ص ص. ٥٢-٥٣

حقيقة أن معظم الفلاسفة الوجوديين اعتمدوا على المنهج الفينومينولوجي في دراستهم للظاهرة ـ الإنسان ـ بأبعادها السيكولوجية والفيزيولوجيا، وكيف ينظر الغير إلى سلوكه وأخلاقه وتصرفاته تجاه المجتمع . نذكر أهم الفلاسفة الذين اهتموا بهذا الميدان .

أمثال صورن كيرك جارد (Soren Kierkegaard, 1913-1855) الفيلسوف الدنماركي ومارتن هيدجر (Martin Heidegger, 1976-1884) الفيلسوف الألماني وغيرهم وكلهم تأثروا بمؤسسي الفلسفة الفينومينولوجيا هيجل وهوسرل . وأهم ما توصل إليه الأوروبيون في استخدامهم لهذا المنهج هو :

أ ـ التعمق في المعرفة والبحث عن الحقيقة الجوهرية لظاهرة الإنسان .

ب ـ استخدام طرق وأساليب معينة مبنية على قواعد علمية وفرضيات صحيحة وذلك لاكتشاف الحقائق والنتائج التي كانت غائبة ومجهولة عند الباحث .

ج ـ استباط طريقة جديدة في معالجة البحث وتطويرها لاكتشاف طرق أخرى .

د ـ تبني مبدأ الاجتهاد واستعمال المنطق في دراسة ظاهرة الإنسان وإصدار أحكام بشأنه .

هـ ـ موضوعية التصور لظاهرة الشكل الكلي وتقسيمه إلى أجزاء ثم دراسته كعينة .

٢ ـ استخدام المنهج الفينومينولوجي في معالجة مشكلة الجريمة والانحراف

إذا كان البحث عبارة عن عملية تطويع الأشياء والمفاهيم والرموز فهو أيضاً وسيلة للاستعلام أو الاستقصاء المحكم والمنظم الدقيق حيث يهدف إلى تطوير أو تصحيح أو التحقق من النظريات أو المعلومات الموجودة، فإن البحث العلمي يجب أن يكون كاملاً ومفيداً ويجب أيضاً أن تبني نتائجه بصفة أساسية على الحقائق. وهذه الحقائق التي يتوصل إليها الباحث تكون مدعمة ومعززة بآراء الباحثين الذين سبقوه لكي يضعها في إطار منطقي وعقلاني وذلك من أجل الوصول إلى تعميم، وهذا في الحقيقة يذكرنا بمفهوم آخر للبحث العلمي الذي نعني به، عبارة عن نشاط علمي منظم يسعى إلى كشف الحقائق معتمداً على مناهج موضوعية دقيقة من أجل معرفة الارتباط بين هذه الحقائق ثم استخلاص المبادئ العامة أو القوانين التفسيرية[١]

حقيقة أن هناك عدة مناهج مضوعية استخدمت في مختلف العلوم من قبل الباحثين إذ توصلوا بها إلى نتائج دقيقة ملموسة، وهذا حسب البحث والدراسة وطبيعة الموضوع وأيضاً حسب التطور الفكري والعلمي لكل عصر، ومن بين المناهج التي أعتقد أنها لم تستغل استغلالاً علمياً في العالم العربي خاصة، هو المنهج الفينومينولوجي على الرغم من أنه يهتم بدراسة ظاهرة الإنسان، وظاهرة العشيرة أو القبيلة وتصوراتها المستقبلية، ويهتم أيضاً بتطور الظواهر الاجتماعية من الناحية النفسية والسلوكية

---

(١) محمد على محمد. علم الاجتماع والمنهج العلمي : دراسة في طرائق البحث العلمي. الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣م، ص. ٦٦

والأخلاقية ويصنفها إلى ظواهر وأشكال موضوعية مستقلة عن بعضها، إذن كيف يوظف هذا المنهج في معالجة شمكلة الجريمة والانحراف ؟

ان المنهج الفينومينولوجي من المناهج المعاصرة التي ظهرت في أوروبا والتي استعملت في عدة دراسات وبحوث أكاديمية وخاصة منها العلوم الاجتماعية التي تهتم بالإنسان، حيث نجد المؤسسات العلمية ومراكز البحث تعتبر هذا المنهج من المناهج العلمية التي لا يمكن الاستغناء عن توظيفه في خدمة البحث العلمي عامة والإنسان بخاصة على الرغم من أن هناك علم الإجرام الذي يهتم بدراسة ظاهرة الجريمة وخطورتها، وعلم النفس الذي يهتم هو أيضاً بدراسة ظاهرة السلوك الإنساني والانحراف إلا أن البحث العلمي لم يعالج ولم يتصول إلى نتائج ملموسة لهاتين الظاهرتين. وفعلاً أن البحث العلمي في العلوم الاجتماعية عامة ضعيف وبطيء في تحقيق نتائجه وهذا بالمقارنة مع العلوم الأخرى، وعلى هذا الأساس ما زالت تربية الإنسان الأخلاقية والاجتماعية بخاصة محل دراسات وانتقادات حيث نستطيع أن نقول عنه أنه «ظاهرة فلسفية معقدة» ومن هنا يستلزم علينا أن نهتم بالعلوم الاجتماعية وتطورها وذلك لترقية الإنسان وتهيئته تربوياً وثقافياً وذلك لكي يؤثر في الآخرين كما يرى المفكر العربي على ماضي في كتابه «فلسفة في التربية والحرية» حيث يقول «. وكما نشاهد ذلك في التربية البدنية، التي ميزتها ليست في تعلم تمرين معين، بل جعل الجسم بكامله مستعدا، هكذا تكون الثقافة، ما يسمح لإنسان ما باستخدام جميع إمكاناته لمجابهة وضعية جديدة أول حل معضلة جديدة، انها تعلم كيف نتعلم»[1]

---

(١) د. على ماضي. فلسفة في التربية والحرية. بيروت : دار المسيرة، ١٩٧٩، ص ١٤٧

أما بالنسبة لمجتمعنا العربي الذي يتميز عن المجتمعات الأخرى بعاداته وتقاليده ولغته وثقافاته ودينه فإنه ما زال كصفحة بيضاء ينتظر البحوث والدراسات العلمية لمعالجة مشاكله والقضاء على مختلف الآفات الاجتماعية التي أصابته كالجريمة والانحراف، ترى ماذا قدم البحث العلمي في معالجة مشكلة الجريمة والانحراف عندنا ؟

٣ ـ البحث العلمي في واقعنا العربي

حقيقة أن البحث العلمي في الدول العربية لم يؤد واجبه ووظيفته العلمية كما هو مطلوب وخاصة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهذا البحث شبه موجود في المؤسسات العلمية كالجامعات ومراكز البحث على الرغم من الإمكانيات المادية والطاقات البشرية والمؤهلات العلمية والقدرات الموجودة عندنا، إلا أننا ما زلنا نعتمد إعتمادا كليا على الغير مما جعل الآخرين يهتمون بدراسة تطورنا البطيء ويتنبؤون بمستقبلنا.

إن من أهم السلبيات التي جعلت العلوم الاجتماعية والإنسانية تسير ببطئ هو حصرها وعزلها عن العلوم الطبيعية بمعني عدم الاهتمام بالبحث الاجتماعي وتهميشه على مختلف المستويات، حيث نلاحظ قلة الوسائل العلمية والإمكانات المادية المسخرة للبحث في العلوم الانسانية بالرغم من اهتمامات الإنسان بكل مراحل حياته، بينما الايجابيات التي تسعى إليها ونعتقد بأنها موضوعية في تحليلنا هي :

أ ـ إعادة النظر في سياسة البحث العلمي مع الإيمان بوجود عدة تخصصات تهتم بدراسة الإنسان والكون.

ب ـ رفع قيمة العلوم الاجتماعية إلى درجة العلوم الأخرى، وتوزيع ميزانية البحث العلمي بالتساوي مع العلوم الطبيعية.

ج ـ توفير الإمكانيات المادية والمعنوية للباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية .

د ـ الدعوة إلي دعم وتعزيز العلوم الاجتماعية والإنسانية وجعل الدول العربية نموذجاً في العالم .

هـ أنشاء فرق البحث ونوادي وجمعيات علمية تهتم بالتوعية ونشر الأخلاق والقيم والفضائل والابتعاد عن السلبيات .

نستنتج مما تقدم من تحليلنا الخاص بأن الامكانيات المتوفرة عندنا في الدول العربية من وسائل مادية وطاقات بشرية وقدرات فكرية تدفعنا إلى التفكير الموضوعي والتخلي عن الأفكار المسبقة والإهتمام بالبحث العلمي وتشجيع المبادرات المبنية على أسس علمية والتي تحارب الجريمة والانحراف في مجتمعنا الإسلامي ، إذن كيف نتصور أن يكون المنهج الفينومينولوجي في دراساتنا العلمية الموجهـة؟

٤ ـ إمكانية الاعتماد على المنهج الفينومينولوجي ؟

إن المجتمعات المتطورة التي استعملت المنهج الفينومينولوجي في مؤسساتها العلمية ومعاهدها العليا ومراكز البحث توصلت إلى نتائج إيجابية في دراساتها الموجهة وعلى هذا الأساس نقترح ما يلي بالنسبة لمجتمعنا العربي الإسلامي :

أ ـ أن تؤدي الأسرة والمدرسة واجبها التربوي والديني . وتوفير الحاجات الأساسية والضرورية لجميع المؤسسات التي تقوم بتربية الأجيال ، قصد القضاء على الجرائم والانحرافات التي تزداد بسرعة ، إن الذي يدير الأسرة ويدير المدرسة ويدير العشيرة أو القبيلة ، ويدير أيضاً المجتمع

فإنه يدير مستقبل البلاد، انطلاقا من هذه الأسس نقوم بتأسيس مجتمع يتولى شؤون وأمر الحضارة الإسلامية العربية.

ب ـ إنشاء مؤسسات تربوية وتثقيفية وإعادة التربية لتوجيه الإنسان العربي إلى الأخلاق الحميدة والابتعاد عن الظواهر والآفات التي تؤدي به إلى التهلكة.

ج ـ إنشاء مراكز تهتم بالبحث العلمي للعلوم الاجتماعية والإنسانية في المدن العربية وتوسيع ميزانيتها العلمية لوصف الواقع العربي وصفاً موضوعياً سياقه الطبيعي من خلال فرق البحث التي تؤدي وظيفتها العلمية في البوادي والأرياف والقرى والمناطق النائية عامة.

د ـ إنشاء شبكة اجتماعية وظيفتها علمية وأمنية تحارب الفساد والانحلال الخلقي كالدعارة والمخدرات وغيرها لتعزيز النسق القيمي الذي تقوم عليه مجتمعاتنا.

هـ ـ إنشاء شبكة أمنية وظيفتها السهر على أمن الدولة والمجتمع والتعاون مع الخارج وذلك باستعمالها الأجهزة المتطورة والتكنولوجيا الحديثة لمتابعة ومحاربة الجماعات أو الأشخاص المهيئين نفسياً لارتكاب الجرائم.

و ـ التنسيق بين المؤسسات الأكاديمية العربية وتدعيم مبادراتها العلمية ومشاريعها التي تهتم بترقية البحث العلمي من خلال جمع المعلومات ونشرها بهدف استغلالها استغلالاً أمثل يمكن المؤسسات العلمية من دراسة الظواهر والتنبؤ بها في ضوء مختلَف المناهج والتقنيات التي تستخدم على المستوى العالمي.

ز ـ الاهتمام بالنتائج العلمية ومختلف المناهج والتقنيات التي توصل إليها البحث العلمي خارج الدول العربية.

وهذه الاقتراحات أو التصورات بصفة عامة إذا تحققت تدفعنا إلى التنبوء بظهور مناهج فلسفية جديدة تتولد عن المدرسة الفينومينولوجيا التي تفسر الكل (الشكل) من أجل فهم الجزء وللتوضيح أكثر فالمجتمع العربي هو الكل نقوم بدراسته كظاهرة اجتماعية مستقلة عن المجتمعات الأخرى ثم نحصرها في دول ثم مناطق ومنها إلى عشائر وقبائل إلخ . وبالإضافة إلى ذلك وفي ظل المعطيات العلمية الموجودة في عالمنا هذا من تحولات اقتصادية وسياسية وحضارية وكذلك من تطورات تكنولوجية وأقمار اصطناعية وقنوات فضائية وانترنيت التي تحققت في ظل العولمة تدفعنا إلى التفكير من تقليص حجم الخطورة الإجرامية والانحراف ، والتنبؤ بفلسفة جديدة وطرق حديثة وتقنيات متطورة جداً تحاول القضاء على الظواهر السلبية في المجتمع العالمي مع بداية القرن الحادي والعشرين .